

## شعر ابن اللبانة الداني في الوفاء للمعتمد بن عباد دراسة موضوعية

رعدة علي الزبون\*

### ملخص

يهدف هذا البحث إلى الوقوف على الأشعار التي نظمها ابن اللبانة الداني في المعتمد ابن عباد الذي يعدّ من أشهر ملوك الطوائف في العصر الأندلسي بعد محنته ووقوعه في الأسر، في محاولة للكشف عن دوافع وفائه الكبير له، ومضامين الأشعار التي نظمها في هذا الاتجاه، التي دارت حول محاور ثلاثة، أولها: مكانة ابن اللبانة الرفيعة عند المعتمد بن عباد أيام ملكه، وثانيها: التحسّر على تبدّل حاله ومكانته بعد زوال ملك بني عباد، وثالثها: الوفاء للمعتمد والتحسّر على ما حلّ به بعد زوال ملكه ودخوله الأسر. وقد خلص البحث إلى خصوصية شعر ابن اللبانة في الكشف عن العلاقة التي ربطته بالمعتمد بن عباد، فضلا عن انعكاسها في موضوعات شعره التي كان الوفاء ملمحا واضحا فيها.

الكلمات الدالة: ابن اللبانة، المعتمد بن عباد.

### المقدمة

لقد ازدهرت الحياة الثقافية في الأندلس في عصر ملوك الطوائف، وشجّع الحكّام الأدب والعلوم، وأولوا الحركة العلمية والأدبية جلاً عنايتهم، فكانوا سبباً من أسباب هذه النهضة الثقافية، ولعل المعتمد ابن عباد يمثل واحداً من أشهر هؤلاء الحكام الذين لا نستطيع إنكار فضلهم في هذا المجال؛ لصلته الوثيقة بشعراء عصره، وتقديمه كل ما يحتاجونه من دعم مادي ومعنوي، ولهذا اجتمع أعلام الشعر والأدب في بلاطه، لينالوا نصيباً من ذلك العطاء الكبير، وليعبّروا عن تقديرهم ووفائهم لما كان يوليهم من حسن الرعاية والاهتمام، وكان من أبرز هؤلاء الشعراء الذين عبّروا عن فضل المعتمد الشاعر ابن اللبانة<sup>(1)</sup> الذي أخلص لبني عباد عامة والمعتمد خاصة ونظم أشعاراً كثيرة تظهر هذا الأمر.

وبناءً على ما تقدّم ارتأى الباحث أن يتناول موقف ابن اللبانة من المعتمد بن عباد بعد محنته ووقوعه في الأسر بالدراسة والتحليل، ليقف على دوافع وفائه الكبير له ومضامين هذه الأشعار التي شكلت نسبة كبيرة من شعره الذي نظمها في المعتمد بعد محنته، ولهذا عاد الباحث إلى ديوان ابن اللبانة وتتبع ما فيه من أشعار تنتظم تحت هذا الباب، ووجد أنها تدور

\* مركز اللغات، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، الأردن. تاريخ استلام البحث 2014/1/15، وتاريخ قبوله 2014/4/1.

في محاور ثلاثة، أولها: مكانة ابن اللبانة الداني عند المعتمد بن عباد أيام ملكه، وثانيها: تحسّر ابن اللبانة على تبدّل حاله وزوال المكانة التي كان يحظى بها بعد زوال ملك بني عباد، وثالثها: الوفاء للمعتمد بن عباد والتحسّر على ما حلّ به بعد زوال ملكه ووقوعه في الأسر، ولعلّ من أهم ما دفع الباحث إلى القيام بهذه الدراسة هو بكاره الموضوع الذي لم يتوصّل الباحث إلى دراسة سابقة فيه.

### تمهيد

حظيت الحركة العلمية والأدبية في عصر ملوك الطوائف (422 - 479 هـ) باهتمام واسع من قبل الحكّام، حيث تتافسوا فيما بينهم في تشجيع الأدب والأدباء، وتففقوا سوق العلوم، وتباروا في المثوبة على المنثور والمنظوم، فما كان أعظم مباهاتهم إلا قول العالم الفلاني عند الملك الفلاني، والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني، وليس منهم إلا من بذل وسعته في المكارم.. ولم تزل الشعراء تتهادى بينهم تهادي النواصم بين الرياض، وتفتك في أموالهم فتكة البراض<sup>(2)</sup>. وكان لدولة بني عباد في إشبيلية اليد الطولى في هذا المجال، حيث كان بلاط أمرائها "مقصداً للشعراء من أنحاء مختلفة"<sup>(3)</sup>؛ لما كانوا يقدّمونه لهؤلاء الشعراء من دعم مادي ومعنوي، وعلاوة على ذلك فقد كان أكثرهم "شعراء يحبون الشعر ويقدرونه ويؤمنون بأنه مقياس للكفاءة"<sup>(4)</sup>.

وكان المعتمد بن عباد (ت 488هـ) من أشهر الملوك الشعراء

وهو في طريقه إلى أعماق -بعد القبض عليه- بشعر يمدحه فيه، بستة وثلاثين متقلاً لم يكن عنده سواها، وأدرج طيها قطعة شعر معتذراً من قتلها<sup>(15)</sup>.

ولم يقف الأمر عند الحصري وحده، بل وصل خبره مع المعتمد والعتاء الذي قدّمه له وهو في أسره إلى جماعة من زعانف الشعراء، وكلّ طالب حياء، مشحود المدينة، في الكدبية، فتعرضوا له بكل قارعة طريق، وجاعوه من كلّ فجّ عميق، يحسبون الدفلي من حاله نُور اجتناء، ويعتقدون السراب في أمره غدير ماء، وطبي الحال، كان ما لا مزيد عليه من الاختلال<sup>(16)</sup>، الأمر الذي زاد من إحساس المعتمد بالألم، وجعله يشكي قائلاً: (17)

شُعراء طُنجة كلهم والمغرب

ذهبوا من الإغراب أبعد مذهب

سألوا العسير من الأسير وإنه

بسؤالهم لأحقّ منهم فأعجب

لولا الحياء وعزة لخمية

طي الحشا لحكامهم في المطلب

وفي الوقت الذي ضرب فيه الحصري - ومن هم على شاكلته من الشعراء المستجدين - المثل في عدم تقدير ظرف المعتمد الصعب عندما كان أسيراً، وتناسيهم الحال المؤلمة التي صار عليها بسبب أسره، وما ترتب عليه من فقر، وذل، وهوان، وفقدان كلّ مقومات الحياة الكريمة التي كان عليها أيام ملكه، نجد أنّ هناك مجموعة أخرى من الشعراء ضربت أجمل الأمثلة وأروعها في الوفاء للمعتمد بن عباد بعد محنته، فوقفوا إلى جانبه، وواسوه على ما حلّ به من تبدل الحال بعد ضياع ملكه، ونظموا فيه عدداً من القصائد والمقطوعات، عبّروا فيها عن وفائهم له، ورثوا فيها ملكه الرائل، وضمّنوها معاني أخرى تدلّ على مشاركتهم الوجدانية له، ومن أبرز هؤلاء الشعراء: "أبو الوليد بن طريف، وأبو محمّد عبد الله بن إبراهيم الحجاري، وابن حمديس، وابن عبد الصمد، وابن اللبانة"<sup>(18)</sup>.

والناظر في علاقة هؤلاء الشعراء - عدا ابن اللبانة - بالمعتمد بن عباد، ووقوفهم إلى جانبه بعد محنته، والشعر الذي نظموا فيه بعد تلك المحنة، يجدها تعبير عن الوفاء له ومقابلة الإحسان بالإحسان، وأمّا موقف ابن اللبانة تجاه المعتمد ووفائه الكبير له بعد محنته، فلا يقف الدارس أمامه إلا ويجد فيه ما يلفت انتباهه، ويجعله يتساءل عن سرّ وفائه الكبير للمعتمد، الذي جعل من ابن اللبانة "شاعر الوفاء"<sup>(19)</sup>، حيث أظهر ابن اللبانة وفاء واضحاً للمعتمد فاق غيره من شعراء عصره؛ إذ زاره في أسره غير مرة، وله معه في زيارته تلك أخبار ومواقف ذكرتها المصادر تدلّ على عمق علاقته به وقوة روابطها،

لا في عصر ملوك الطوائف فحسب، وإنما كان "أشهر الملوك الشعراء على الإطلاق وأجزلهم شعراً"<sup>(5)</sup>، وعُرفَ بعنايته الفائقة بالأدب والأدباء، ففي عهده نال الشعراء مكانة مرموقة على المستويين: الأدبي والسياسي، حيث كان "لا يستوزر وزيراً إلا أن يكون أديباً شاعراً حسن الأدوات"<sup>(6)</sup>، حتى "اجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس"<sup>(7)</sup>، وفي أيامه نفقت سوق الأدباء، فتسابقوا إليه، وتهاافتوا عليه<sup>(8)</sup>؛ رغبة في الوصول إلى بلاطه، فغدت "حضرتة ملقى الرجال، وموسم الشعراء، وقبلة الآمال، ومألف الفضلاء"<sup>(9)</sup>، وتجاوزت عناية المعتمد بالأدباء والشعراء حدود مملكته حتى إنه "قصده شعراء الغرب الإسلامي كله، فألى بلاطه لجأ شعراء صقلية وإفريقية عندما غزا النورمان بلادهم"<sup>(10)</sup>.

ونظراً للعناية الكبيرة التي حظي بها الأدباء والشعراء عند المعتمد بن عباد اجتمع في بلاطه أعلام الشعر والأدب في عصره، أمثال: ابن زيدون، وابن عمار، وابن اللبانة، والحصري، وابن حمديس، وعبادة القزّاز، وابن عبد الصمد، وعبد الجليل بن وهبون، وعشرات غيرهم<sup>(11)</sup>. وكان هؤلاء الشعراء - بمجملهم - مقدّرين لما قدّمه المعتمد بن عباد لهم من إكرام ودعم مادي ومعنوي، فمدحوه وأثروا عليه، فهذا ابن اللبانة يشير إلى فضل آل عباد عموماً ويمدحهم، فيقول: "بماذا أصفهم، وأي منقبة من الجلالة أوليهم، فهم القوم الذين تجلّ مناقبهم عن العدّ والإحصاء، ولا يتعرّض لها بالاستيفاء والاستقصاء، ملوك رُئيت بهم الدنيا وتحتلت، وترقت حيث شاعت وحلت"<sup>(12)</sup>، ويُنزل ابن اللبانة الدولة العبّادية في عنايتها بالأدب والأدباء منزلة الدولة العبّاسية، فيقول: "إن الدولة العبّادية بالأندلس أشبه شيء بالدولة العبّاسية ببغداد، سعة مكارم، وجمع فضائل"<sup>(13)</sup>، وأشار المقرّي (ت 1041هـ) إلى أنّ ابن اللبانة ألف فيهم كتاباً مستقلاً سماه "الاعتماد في أخبار بني عباد"<sup>(14)</sup>.

ولهذا نجد أنه ليس من الغريب أن يتهافت الشعراء على اختلاف طبقاتهم على بلاط المعتمد بن عباد أيام سلطانه؛ فتمّة حاجات لديهم يسعون إلى تحقيقها والوصول إليها، فالذي يريد المال يجده، والذي يريد السلطة يجد الوزارة وغيرها من المناصب بانتظاره، ولكن اللافت للنظر لعلاقة المعتمد مع بعض شعرائه بعد زوال ملكه، حيث دأب بعضهم على التّواصل معه وظلّ اعترافهم بفضلهم عليهم حتى عندما كان مسلوب الحكم أسيراً لا حول له ولا قوة، فبادروه بالوفاء وزاروه في أسره وشاطروه الألم والأسى على ما حلّ به، ومن فرط كرمه زاره بعض الشعراء وهو في الأسر طالبيين عطاءه متغافلين عن سوء الحال التي كان عليها، ومن هؤلاء الشعراء الحصري الكفيف، ذلك الشاعر الذي كان "قد تعرّض للمعتمد

ونظم فيه مقطوعات وقصائد مطوّلة تجاوز بعضها الخمسين بيتاً.

فما هي دوافع هذا الوفاء الكبير؟ وما هي مضامين الأشعار التي نظمها ابن اللبانة الداني في المعتمد ابن عبّاد بعد محنته؟

إنّ نظرة فاحصة في الأشعار التي نظمها ابن اللبانة في المعتمد بن عبّاد بعد محنته تكشف عن انعكاس محنة المعتمد وتركها أثراً كبيراً في حياة ابن اللبانة ونفسيته؛ وذلك لأنّه لما زال ملك بني عبّاد، وذهبت مكانتهم زالت المكانة الكبيرة التي كان ابن اللبانة يحظى بها في بلاطهم، وقد بدا هذا الأمر جلياً في مضامين الأشعار التي نظمها ابن اللبانة في المعتمد بن عبّاد بعد محنته، حيث دارت تلك المضامين حول محاور ثلاثة، كشفت عن دوافع وفاء ابن اللبانة الكبير للمعتمد وحزنه البين على ما حلّ به بعد زوال ملكه، فكانت أشعاره رثاءً لنفسه وتبدّل حاله بعد زوال ملك بني عبّاد من جهة، ورثاءً للمعتمد وما حلّ به بعد ذهاب ملكه ودخوله في الأسر من جهة ثانية، وسنتبين هذا الملمح من دراستنا للمضامين التي دارت حولها أشعار ابن اللبانة في المعتمد بعد أسره، وهي:

- المكانة التي كان يحظى بها ابن اللبانة في بلاط المعتمد بن عبّاد.

- التحسّر على تبدّل حاله بعد زوال ملك بني عبّاد.

- الوفاء للمعتمد بن عبّاد ورثائه والتحسر على ما حلّ به بعد زوال ملكه ودخوله الأسر.

#### أولاً: مكانة ابن اللبانة الداني عند المعتمد بن عبّاد أيام ملكه:

تكاد المصادر الأندلسية التي تحدّثت عن دولة بني عبّاد وعنايتها بالحركة العلمية والأدبية، وكذلك المصادر التي ترجمت للمعتمد وابن اللبانة أن تجمع على أنّ ابن اللبانة حظي بمكانة مرموقة في عهد بني عبّاد وفي بلاط المعتمد خاصّة، فقد أشارت إلى مكانته الكبيرة عندهم، وما كان يتلقّاه من دعم مادي ومعنوي، ومن ذلك ما ذكره المقرّي (ت 1041هـ) في معرض حديثه عن المعتمد، وهو في الأسر، حيث يقول: "وفي هذه الحال زاره أبو بكر ابن اللبانة، وهو أحد شعراء دولته المرتضعين بزرها، وكان المعتمد - رحمه الله تعالى - يميّزه بالشّوق والإحسان، ويجوّزه في فرسان هذا الشأن"<sup>(20)</sup>. ويتحدّث ابن بسّام الشنتريني (ت 542هـ) عن مكانة ابن اللبانة عند ملوك الطوائف لا سيّما في عهد المعتمد، فيقول: "وأما أبو بكر فتردّد على ملوك الطوائف بجزيرة الأندلس تردّد القمر في المنازل، وحلّ من ملوكها محلّ الحلي من صدور العقائل، يسحب على دولهم، ويقلب الطّرف بين خيلهم وخولهم،

وخيم أخيراً في ذرى المعتمد بن عبّاد إذ كان أصدقهم نوعاً، وأبهزهم في مطالع السّودد ضوّاً"<sup>(21)</sup>، ويصف الفتح بن خاقان (ت 529هـ) مكانة ابن اللبانة عند المعتمد ابن عبّاد وتشجيعه لأدبه وإظهار تفوّقه، فيقول: "كان المعتمد - رحمه الله - يميّزه بالتّقريب، ويستعرب ما يأتي به من النّادر الغريب، ويوليه إنعاماً وإحساناً، ويريه الزّمان كله آذراً ونيساناً"<sup>(22)</sup>.

ولهذا كانت مكانة ابن اللبانة الكبيرة التي حظي بها عند المعتمد بن عبّاد أحد المحاور البارزة التي عبّر عنها في أشعاره التي نظمها بعد محنة المعتمد ووقوعه في الأسر، وحتى في الأشعار التي نظمها أيام عزّ دولة بني عبّاد، فتحدّث عن فضلهم الكبير عليه ومكانته العلية عندهم، ومن ذلك تلك الأبيات التي جعلها الشّقندي إحدى الفضائل والمفاخر التي ضمّنها رسالته التي كتبها في الدّفاع عن الأندلس وبيان فضلها على بر العُدوة، حيث جعل تلك الأبيات مثلاً على الوفاء، ونموذجاً فريداً للعرفان بالجميل، فقال: "وهل منكم من قيّد بالإحسان فأطلق لسانه الشّكر، فقال وهو ابن اللبانة:"<sup>(23)</sup>

بنفسي وأهلي جيرة ما استعنتهم

على الدّهر إلا وانثيتُ معانا

أرأشوا جناحي ثمّ بلوه بالندي

فلم أستطع من أرضهم طيراناً \*

وتتطرق أشعار ابن اللبانة التي نظمها في المعتمد وبني عبّاد بالمكانة الكبيرة التي كانت له عندهم، ويبدو فيها متباهياً بعلو قدره وبمكانته الكبيرة عندهم، تلك المكانة التي جعلته أمراً ناهياً يطلب ما يشاء فيجده، ومن ذلك قوله:<sup>(24)</sup>

ما كان أرفع موضعي إذ كان لي

في جانب العلياء عندك موضعُ

أيّام أطلبُ ما أشاء فينقضي

وزمان أدعو منْ أشاء فيسمعُ

وأمدُ كفي نحو كلّ عليّة

وأنالمي من طولها بك أذرعُ

وكثيراً ما كان ابن اللبانة يُدكّر المعتمد بن عبّاد في معرض أشعاره التي توجّه إليه بها - وهو في الأسر - بفضله الذي كان له عليه أيام كانت الدّنيا مقبلة عليه، وكان ملكه في سوّدد واستقرار، فيصور مكانته الكبيرة التي كان يشعر بها عنده، وكيف كان المعتمد قد كفاه وأغناه بما كان يقدّمه إليه من عطاء، حتى إنّه صار من شدّة كرم المعتمد وفضله عليه أدرى منه بنفسه، ومن ذلك أنّه زاره مرّة في الأسر فما كان من المعتمد إلا أن جرى معه في العطاء على ما كان قد اعتاد عليه أيام ملكه، فقدّم له ما كان بإمكانه تقديمه، وهو على تلك الحال معتزلاً عن قلّته<sup>(25)</sup>، غير أنّ ابن اللبانة لم يكن قد زاره من أجل العطاء،

وإنما كانت وفادته عليه وفاءً له مجرداً من أي مطمع مادي،  
ولقد عبّر ابن اللبانة عن ذلك، وأخذ يذكره المعتمد بن عباد  
بفضله القديم عليه أيام كان الملك له، فخطبه قائلاً: (26)

أنا أدري بفضلك منك إنّي

لبستُ الظلّ منه في الحرورِ

غنيّ النفسِ أنت وإن أَلَحْتُ

على كفيك حالاتُ الفقيرِ

تصرفُ في الندى حيلَ المعالي

فتسمحُ من قليلٍ بالكثيرِ

أحدتُ منك عن نبعٍ غريبِ

تفتحُ عن جنى زهرِ نصيرِ

ولم تتأثر مكانة ابن اللبانة الكبيرة عند المعتمد حتى وهو  
في أسره، الأمر الذي كان له الأثر الكبير في نفس ابن اللبانة،  
فعبّر عنه ووصفه بقوله: "وبلغت حالي عنده من التقريب  
والترحيب أن أفرطت في الإدلال وانبسبت في الاسترسال،  
وخطبته في أن يكون زادي من نعمائه، وأن يحاول صنعه  
بعض إمامه، حرصاً منّي على التّشريف، وسعياً إلى الاستزادة  
من شكر المعروف فكان ذلك على أحسن وجه، وشكر غاية  
الشكر انبساطي، وتحقق به صحّة ارتباطي" (27).

ويعمق إحساس ابن اللبانة بمكانته الكبيرة التي تمتع بها  
عند المعتمد بن عباد شعوره بالألم على ما حلّ بالمعتمد من  
تبدّل الحال، وانعكاس هذا الأمر عليه، هذا من جهة، ومن  
جهة أخرى يعمق إحساسه بفضل المعتمد الكبير عليه، ويجعله  
يدين له بالوفاء والعرفان بالجميل، وكيف لا يكون شعور ابن  
اللبانة كذلك، وقد كانت له عند المعتمد المكانة الكبيرة لا أيام  
ملكه وقوته فحسب، وإنما حتى وهو أسير ضعيف مهزوم، ولقد  
صوّر ابن اللبانة هذه المشاعر عندما فارقه بعد تلك الزيارة،  
وعبّر عن إحساسه بالحزن الذي انتابه لمفارقتها، وتوجّه إليه  
بالشكر على فضله الذي غمره به من قبل أيام ملكه، ومن بعد  
وهو في الأسر، فقال: (28)

وداعٌ ولكني أقولُ سلامٌ

وللنفس في ذكر الوداعِ حِمامٌ

أخادع نفساً إنْ تحقّقت النوى

فليس لها بين الضلوعِ مقامٌ

أكرّر لحظي في محياك إنّه

لنور الهدى فيه عليك قتامٌ

وأجمل من تقبيلِ كفيكِ سوّداً

على عاتق الجوزاء منه حسامٌ

أملبي النعمى قديماً ومثلها

حديثاً وأحداثُ الزّمانِ عظامٌ

لأجلستني حتى انكأْتُ ولم تزل

يُدلُّ على الموتى الكريمِ غلامٌ

ويعدّد ابن اللبانة فضائل المعتمد بن عباد عليه ومناقبه،

ويصوّر إحسانه الكبير إليه في معرض قصيدة قالها يندب

المعتمد حينما زاره في أعماط، ويذكره فيها بأيامه التي كانت

معه، وبمكانته الكبيرة عنده، وبالعطاء الكبير الذي ناله أيام

ملكه، فيقول: (29)

نهزّ شربتُ بعبريه على صُورِ

كانت لها فيّ قبلَ الرّاحِ سوراتُ

وكنتُ أروقُ في أيكاته ورقاً

تهوى ولي من رقيق الشّعْر أصواتُ

وكم جريتُ بشطّيّ ضفتيه إلى

محاسنِ للهوى فيهنّ وقفاتُ

ولا يتوقّف ابن اللبانة عن تذكّر فضل المعتمد الكبير عليه،

والتحدّث له عنه، وقد كان ذلك الفضل من أهمّ الدوافع التي

حدثت به إلى زيارة المعتمد في الأسر، ليواسيه ويعبّر له عن

عرفانه بفضله عليه ووفائه له، ولقد صوّر ابن اللبانة هذه

المشاعر للمعتمد بن عباد عندما زاره في إحدى المرات في

الأسر، حيث كان قد أكرمه فيها وقدم له العطاء، ولكنّ ابن

اللبانة اعتذر عن قبول ذلك العطاء، تقديراً منه للحال التي كان

عليها المعتمد، ولأنّه ليس من اليسير على نفس المعتمد أن يرّد

عطاؤه حاول ابن اللبانة أن يخفّف عنه ذلك، فذكره بفضله

القديم عليه، الأمر الذي جعله مديناً له بالوفاء، فحسبه أنّه كان

من إحساسه بإكرام المعتمد له أنّه كان يشعر بأنّه سيّد يطاول

الكواكب قدراً، ويعبّر ابن اللبانة عن ذلك كله بقوله: (30)

ليت لي قوّة أو أوي لركنِ

فترى للوفاء منّي سرا

أنت علمتني السّيادة حتى

ناهضت همّتي الكواكبِ قدرا

رحبتُ صفقة أزيل برودا

عن أديمي بها وألبس فخرا

وكفاني كلامك الرّطب نيلا

كيف ألقى ذرا وأطلب تبرا

ومما تقدّم يتبيّن لنا أنّ فضل المعتمد بن عباد كان كبيراً

على ابن اللبانة، حيث أكرمه وقدم له العطاء الكبير، الأمر

الذي جعل لابن اللبانة منزلة كبيرة تميّز بها عن كثير من

الشعراء، وجعلته-كما وصفها في شعره- يشعر بالسيادة

والتمكن، حيث كان يحصل على كل ما كان يتمناه وتطلبه

نفسه، وكانت الدنيا أيام المعتمد مقبلة عليه فكان في سعة من

العيش والرّخاء والعز، ولكنّ كلّ ذلك تبدّل وزال عنه بعد زوال

القصيدة ذاتها:

سقى الله عهداً كنت صيبَ عهده  
بمثل الذي قد كنت تسقي وتشربُ  
زمان بماء المكرمات مفضضُ  
لديك ومن نار الكؤوس مُذهبُ  
ويتذكر ابن اللبانة أيامه مع بني عبّاد بحنين ممزوج  
بالأسى والحسرة على ما حلّ بهم وبه من بعدهم، ويصوّر ما  
كان في تلك الأيام من نعيم وسعادة جعلت أيامه معهم أعياداً  
وأعراساً، فيقول: (32)

إنّا إلى الله في أيامهم فلقد  
كانت لنا مثل أعراسٍ وأعيادٍ  
هم الشواهِقُ فيها كهفٌ مُعتصمٌ  
مثل الأباطحِ خصبٌ مرتادٍ  
تباً لدنيا أذاقتهم حوادثها

بَرَخ العذاب وما دانوا بالحادٍ  
ويتجلّى فقدان ابن اللبانة لآل عبّاد وحزنه عليهم وعلى حاله  
من بعدهم واضحاً في تحسّره على نفسه وتألّمه من الحال التي  
آل إليها بعدهم، فلم يعد من بعدهم أحد يسدّ حاجاته الماديّة  
والمعنويّة، ويكفيه سؤله وحوائجه كما كانوا هم من قبل، فيصوّر  
فقدانه لهم ولعطاياهم بقوله: (33)

من لي بكم يا بني ماء السّماء إذا  
ماء السّماء أبى سقى الحشى الصّادي  
وأين ألقاكم في الرّوع من فته  
مدرّيين على الهيجاء أنجادٍ  
ومن يُحق لي الآلاف من ذهب

كأنما أشربت ماذية الحادٍ  
ويمعن ابن اللبانة في التعبير عن الحزن والأسى الذي  
انتابه لتبدّل حاله بعد زوال ملك بني عبّاد ومحتهم، فيعبّر  
عن حنينه لأيّامه معهم، ويصوّر بألم واضح فقدانه لكل  
مظاهر الحياة الجميلة التي كان يحياها في كنفهم، حيث كان  
مكفياً من جوانب عدّة، وقد وظّف أسلوب الاستفهام ليعبّر به  
عن عمق إحساسه بالألم لفقدانه تلك الحياة التي زالت عنه  
كلّ معالمها وتفصيلها الجميلة، فنجدّه يفتقد المعتمد وهو  
يقسمّ العطايا على زوّاره وقاصديه، ويفتقد مجالسة ابنه الرّشيد  
في مجالس العلم والأدب التي كان يحضرها في معيته، وقد  
كان الرّشيد كما أورد ابن الأبار في ترجمته من أهل العلم  
والأدب والشعر (34)، ويفتقد أيضاً مجالس الأُنس التي كانت  
بحضرة ابنه المعتد والمنزلة الرّفيعة التي كانت له في تلك  
المجالس، ويحنّ إلى كل تلك الأمور بأسى واضح وألم يتجلّى  
في قوله: (35)

ملك المعتمد بن عبّاد، فلم تعد الدّنيا على ما كانت عليه وغادره  
نعيمها، الأمر الذي كان له أثر سلبي في نفسيته وحياته كلها،  
ومن هنا يمكننا القول إنّ المكانة الكبيرة التي حظي بها ابن  
اللبانة عند المعتمد أيّام ملكه كانت من أهم دوافع وفائه الكبير  
للمعتمد، وقد كان فقدان تلك المكانة من أبرز الدوافع التي  
جعلته يشعر بفضل المعتمد عليه، فيبكي عليه بكاءً مريراً، ولقد  
كان بكأوه وفاءً لحاكم عاش في ظلّه أجمل الأيّام، شرّع فيها له  
أبوابه وكفاه من جوانب عدّة ماديّة ومعنويّة هذا من جانب،  
ومن جانب آخر كان بكاءً على ذاته حيث زالت عنه المكانة  
الكبيرة التي تمتّع بها أيّام حكم المعتمد بن عبّاد، وأغلقت في  
وجهه الأبواب التي كانت ترفده بالعطاء، والمجالس التي كان  
يجد فيها لنفسه مكاناً بين أهل السّيادة والأدب، وستتضح كلّ  
هذه الآثار عند دراسة المحور التالي الذي دارت حوله مضامين  
أشعار ابن اللبانة في المعتمد بعد محنته.

ثانياً: تحسّر ابن اللبانة على تبدّل حاله وزوال المكانة التي  
كان يحظى بها بعد زوال ملك بني عبّاد:

لم يقتصر الأثر السلبي لزوال ملك المعتمد بن عبّاد عليه  
وعلى آله وحدهم، بل طال - أيضاً - كلّ من كان يحظى  
بالعناية والتقدير في بلاطه، والمقرّبين منه على وجه  
مخصوص، وكيف لا يتأثرون بما حلّ بالمعتمد، وقد ذهب من  
يرفدهم بالعطاء، ويقدمهم على غيرهم في المكانة والبدل؟! ولقد  
كان ابن اللبانة - كما تبين - من أبرز الذين حظوا بمكانة كبيرة  
عند المعتمد بن عبّاد، وعليه فإنّ تأثره بزوال ملك المعتمد كان  
بمقدار تلك المكانة الكبيرة، إذ تبدّلت حاله هو الآخر، حتى  
شكّل هذا الأمر ملمحاً جلياً في أشعاره التي نظمها في المعتمد  
بعد محنته، فكان كثيراً ما يقابل بين حاله أيّام حكم المعتمد  
واستقرار ملكه، وكيف كان ينعم في تلك الفترة بطيب العيش  
ورخائه، ويبين حاله بعد زوال هذا الملك وما ترتّب عليه من  
تبدّل لحاله، ومن ذلك قوله: (31)

بروق الأمانى دون لُقاك خُلبُ  
ومشرقُ أفق لم تلح فيه مغربُ  
عدمُ مرادي فيك لا الماء نافعُ  
ولا الظلّ ممدودٌ ولا الرّوضُ مُخصبُ  
ولا أنا في تلك الحديقة زهرةُ

ولا أنا في تلك المجرة كوكبُ  
لقد أصبح ابن اللبانة بعد المعتمد هائماً على وجهه، لا يجد  
لنفسه مكاناً، فما كان منه إلا أن رجع إلى أيامه مع المعتمد بن  
عبّاد داعياً لها بالسّقى، ومصوّراً السّعادة التي كانت تنعمه فيها،  
والعطاء الذي كان يغدقه عليه، وقد عبّر عن ذلك بقوله في

للمعتمد بن عبّاد فعلاً وقولاً، إذ زاره في الأسر - كما تشير المصادر - غير مرّة، وقال فيه مقطوعات وقصائد عدّة صوّرها فيها وفاءه الكبير له، ولقائل أن يقول إنّ ابن اللبانة لم يكن بدعا في وفائه للمعتمد وتواصله معه بعد محنته؛ ففي الوقت نفسه أثر بعض شعراء المعتمد من ذوي الوفاء أن يلحقوا بمليكمهم إلى أغمات بإفريقية ليواسوه في محنته ويندبوا فيه العزّ الزائل والمجد الزّاحل<sup>(40)</sup>، وهذا كلام صحيح لا يُمارى فيه، ولكنّ وفاء ابن اللبانة له فاقهم جميعاً، فقد زاره في أسره وفاءً وعرفاناً لما كان له عليه من أياد بيضاء وفضائل غمره بها أيّام ملكه، وتعبيراً عن حزنه ومشاركته في محنته، في حين أنّ غيره من الشعراء - والحصري راندهم - زاروه طمعاً في العطاء متناسين ما كان عليه من ذلّ وبؤس وقلة حيلة، وحتى شعرهم الذي توجّهوا به إليه كان ممّا قالوه فيه أيّام ملكه، إذ لم يكلف الحصري - مثلاً - نفسه فينظم فيه شعراً يناسب الحال التي آل إليها<sup>(41)</sup>. ولقد زار المعتمد شعراء آخرون - ومنهم علي سبيل المثال ابن حمديس<sup>(42)</sup> - تعبيراً عن وفائهم له، ولكنّ ابن اللبانة فاقهم أيضاً في هذا الجانب في التعبير الشعري: كمّاً وتعبيراً، فنظم فيه عدداً من المقطوعات والقصائد المطوّلة تتدلّ على عمق فجيعة فيه، وأنّ حزناً عميقاً كان يسكنه ولا يكاد يفارقه ويلجّ عليه بأن يعبرَ عمّا كان يعانیه من أسى عميق-تبييناه سابقاً- على المعتمد بن عبّاد وآله وعلى نفسه من بعدهم، وبذا فإنّ موقف ابن اللبانة من المعتمد بعد محنته لدليل على وفائه المنقطع النّظير له، فقد نظر في حاله أيّام ملكه وكيف تبدّلت بعد محنته فأدرك أنّ للمعتمد اليد العليا عليه.

**ثالثاً: الوفاء للمعتمد بن عبّاد والتّحسّر على ما حلّ به بعد زوال ملكه ووقوعه في الأسر:**

صوّر ابن اللبانة في هذا المحور عمق مأساته وفجيعة وتحسّره على ما حلّ بالمعتمد بن عبّاد بعد زوال ملكه ووقوعه في الأسر وانقضاء أيّامه بلا عودة، ولقد ظهر هذا الوفاء واضحاً للمعتمد من خلال الأشعار التي نظمها فيه بعد محنته، ومن المواقف التي كان قد مرّ بها عند زيارة المعتمد في أسره، أو عندما كان يشاهد أحد أفراد أسرته وقد تبدّلت بهم الحال، ولقد بدت مشاركته الوجدانية له وتعاطفه مع حاله بصورة لافتة للنظر قولاً وفعلاً، ومن ذلك أنّه بادر بزيارته في أغمات، لا لغاية يطلبها منه وإنّما لأنّه كان " ملتزماً عهد الوفاء، قاضياً ما يجب من شكر التّعمى"<sup>(43)</sup>، ولقد قابل المعتمد وفاء ابن اللبانة له بالإكرام والعطاء فبعث إليه لما أراد المغادرة " بعشرين متقالاً وشقّة رازي بغدادي"<sup>(44)</sup> ومعها قصيدة يعتذر فيها عن قلّة ما قدّمه له، ومصوّراً خجله من نفسه، وقد اعتاد قبل أسره أن

وأين معتمدٌ نعمى يقسمها

مرعى وماء زوار ورواد

وأين لي كنف المعتد منزلة

على احتفال من التّعمى وإعداد

مكارم ومعال كنت بينهما

كأنّي بين روضات وأطواد

ويشير ابن اللبانة إلى المفارقة الكبيرة بين حاله التي كانت أيّام ملك المعتمد بن عبّاد، وبين حاله بعد سقوط دولته وزوال ملكه، الأمر الذي دفعه إلى المقابلة مرّات عديدة بين الحالين، ويتذكّر كيف كان كلّ شيء على عهد المعتمد جميلاً مشرقاً، وكيف كان يحيا في كنفه في عزّ وتقدير، وكيف فقد كلّ ذلك وتحول إلى نقيضه في الفترة التي عاشها بعد أسر المعتمد وضياح ملكه، فيقول:<sup>(36)</sup>

صباحهم كنّا به نحمّد السرى

فلما عدمناهم سرّينا على عمى

وكنّا رعيّنا العزّ حول جماهم

فقد أجدب المرعى وقد أفرّ الحمى

لقد غيّر هذا التّحول الكبير مجرى حياة ابن اللبانة وأثر فيه تأثيراً سلبياً، وجعل الدّنيا تضيق عليه بما رحبت، حتّى إنّه تمنّى لو أنّه لم يعيش بعد بني عبّاد وفاءً لهم، وحزناً عيهم وعلى نفسه وما حلّ بها بعدهم، وصوّر هذه المشاعر المؤلمة في غير مقطوعة وقصيدة من أشعاره التي نظمها بعد محنة المعتمد، ومن ذلك قوله يتمنّى الموت على أن يفارق معاهد بني عبّاد:<sup>(37)</sup>

معاهدٌ لبت أتي قبل فُرقتها

قد متّ والتّاركوها ليتهم ماتوا

فجعتُ منها بأخوانٍ ذوي تقّة

فاتوا.. وللذّهر في الأخوان آفات

وصار عيش ابن اللبانة - بعد ما حلّ به بالمعتمد بن عبّاد - نكدا ولم تعد لديه غاية يسعى إليها؛ إذ ذهب من كان يعول عليهم، فيقول معبراً عن هذا:<sup>(38)</sup>

لفاكم الله خيراً أنكم نفر

لم تعرفوا غير فعل الخير من عاد

إن كان بعدكم في العيش من أرب

فإنّ في عُصصٍ عيشي وأنكاد

إنّ فقدان ابن اللبانة لمقومات الحياة الكريمة التي كان يحياها في كنف المعتمد بن عبّاد جعله يشعر بفضله عليه ويدين له بالوفاء، ويظللّ على تواصله معه حتّى بعد زوال ملكه، حتّى إنّه عدّ - كما تقدّم - من أصدق شعرائه، وصار مضرب المثل في الوفاء<sup>(39)</sup>، ولقد ترجم ابن اللبانة وفاءه الكبير

يوجد على المقرّبين منه بالكثير، فقال: (45)

إليك النّزر من كفّ الأسير

فإن تقنع تكن عين الشّكور

تقبّل ما يذوب له حياءً

وإنّ عذّرتّه حالاتُ الفقير

ولا تعجب لخطب غضّ منه

أليس الحسّف مُلتزم البُور

ولأنّ غاية ابن اللبانة من زيارة المعتمد في أسره محض

وفاء، ووقوف إلى جانبه في محنته، فقد ردّ عطاءه وأظهر له

العرفان بالفضل الذي كان له عليه من قبل، وتقديره لحاله التي

آل إليها، فقال محاولاً التخفيف عنه وتسويغ موقفه من عدم

قبول عطائه: (46)

سقطتُ من الوفاء على خبير

فذرني والذي لك في ضميري

تركتُ هواك وهو شقيق ديني

لئن شُقتُ برودي عن غدور

ولا كنت الطليق من الرّزايا

لئن أصبحتُ أجحف بالأسير

أسيرٌ ولا أسيرٌ إلى اغتنام

معاذ الله من سوء المصير

إذا ما الشّكر كان وإن تناهى

على نعمي فما فضل الشّكور

وقد كان ابن اللبانة يعلم أنّه ليس من السهل على المعتمد

أن يردّ عطاؤه؛ لهذا حاول أن يواسيه ويخفف عنه بأن ذكره

بفضله القديم عليه، ويبيّن له أنّه ما يزال على حاله التي كان

عليها من قبل كريماً غنياً عزيزاً، حتّى وهو في الأسر يعاني ما

يعانيه من ضعف، وذل، وفقر، فخاطبه قائلاً: (47)

غنيّ النّفس أنت وإنّ ألحنتُ

على كفيك حالاتُ الفقير

نُصرفتُ في النّدى حيلَ المعالي

فتسّمحُ من قليلٍ بالكثير

أحدتُ منك عن نبعٍ غريبٍ

تفتّح عن جنى زهرٍ نضير

وأعجب منك أنّك في ظلامٍ

وترفع للعفاة منار نور

ولأنّ مكانة ابن اللبانة لم تتأثّر عند المعتمد حتى وهو في

أسره، كان من الصّعب عليه أن يفارقه، فقد حظي عنده بحفاوة

وإكرام وصفهما قائلاً: "وبلغت حالي عنده من التّقريب والتّرحيب

أن أفرطت في الإدلال، وانبسطت في الاسترسال" (48)، حتّى إنه

عزّ عليه مفارقتة، ولكنّ الفراق كان حتماً لا بدّ منه، ألمه

وسبّب له الحزن والأسى، فعبر عن ذلك بقوله: (49)

وداعٍ ولكنّي أقولُ سلامٌ

وللنّفس في ذكر الوداع حِمَامٌ

أخادعُ نفساً إن تحققت النّوى

فليس لها بين الصّلوع مقام

قد ائتلفت أهواؤها بك جملةً

كما ائتلفت في وكرهن حمَامٌ

وشقّت على النّصح المبين جيوبها

كما شقّت عن زهرن كمَامٌ

أكرّر لحظي في محياك إته

لنور الهدى فيه عليك قَتَامٌ

ولم يكن فراق ابن اللبانة أمراً سهلاً على المعتمد بن عبّاد،

أمراً سهلاً بل كان صعباً وعزيراً عليه؛ حيث كان ابن اللبانة قد

أنسه في أسره، وهون عليه شيئاً من المرارة التي كان يجدها،

فتأثّر لفراقه وتألّم وتمتّى لو أنّه لا يفارقه أبداً، فصور أنسه بتلك

الرّيازة وسعادته بها وحزنه على انتهائها قائلاً: (50)

لقد كان فألٌ من سمائك مؤنس

فقد عاد ضدّاً والعراء رمَامٌ

تحلّيتُ بالذاني وأنت مُباعدُ

فيا طيبٌ بدء لو تلاه تَمَامٌ

ويا عَجَباً حتّى السّماتُ تحونني

وحتّى انتباهي للصّديقي مَنَامٌ

أضاء لنا أغماتُ فُرُوكُ بُرْهَة

وعاد بها حين ارتحلّت ظلامٌ

ويظهر وفاء ابن اللبانة الكبير للمعتمد بن عبّاد وآله جميعاً؛

لتبدّل الحال عليهم وانقلابها من بعد العلو سفلاً ومن بعد العزّ

ذلاً، ومن ذلك موقفه لما رأى حفيد المعتمد وهو غلام وسيم،

وقد اتّخذ الصّياغة صناعة، وكان قد لقّب في دولتهم من

الألقاب السلطانية بفخر الدّولة، فنظر إليه وهو ينفخ النّار

بقصبية الصّائع (51)، فتحرّك الألم بداخله لما شاهده فعبر عنه

قائلاً: (52)

أذكي القلوبِ أسي أبكى العيونِ دما

خطبٌ وجدناك فيه يشبه العدما

أفراد عقد المنى منّا قد انتشرت

وعقد عروتنا الوثقى قد انفصما

شكاتنا فيك يا فخر العلى عظمت

والرزءُ يعظّمُ فيمن قدره عظما

ومن شدّة تأثّر ابن اللبانة بهذه الحال التي رأى حفيد

المعتمد عليها، أخذ يقابل بين حاله قبل زوال ملك بني عبّاد

وحاله بعدها، فصور ذلك بقوله:

عليها حتى إنه صار من حزنه الكبير عليه يرى أن كل شيء  
صار حزينا، وأنه حتى الجمادات قد تبدلت حالها هي الأخرى،  
فتألمت لفقد المعتمد وبكته بكاء مريرا، فيصور هذا بقوله: (54)

تبيكي السماء بمزني رائح غادي  
على البهاليل من آل عباد  
على الجبال التي هدت قواعدها  
وكانت الأرض منهم ذات أوتاد  
والربابات عليها اليناعات دوت  
أنوارها فعدت في خفض أوهاد  
عريسة دخلتها النائبات على  
أساود لهمو فيها وآساد  
وكعبة كانت الآمال تعمرها

فاليوم لا عاكف فيها ولا باد  
ومن شدة حزن ابن اللبانة على المعتمد وما حل به جعل  
كل شيء يشاركه الحزن والأسى عليه، فالطبيعة من حوله بكل  
ما فيها من مكونات وظواهر: كالبحر، والدجى، والإصباح،  
والرعد والبرق.. تشاطره الحزن والألم، وفي ذلك يقول: (55)

بكاك الحيا والريح شقت جيوبها  
عليك وناخ الرعد باسمك معلما  
ومزق ثوب البرق واكتست الدجى  
حدادا وقامت أنجم الليل مأتما  
وحار ابنك الإصباح وجدا فما اهتدى  
وغار أخوك البحر غيظا فما طمى  
وما حل بدر التم بعدك دارة

ولا أظهرت شمس الظهيرة ميسما  
ويشارك ابن اللبانة كل من تبدلت حالهم مثله بعد محنة  
بني عباد، ويكي معهم الأبواب التي أغلقت أمامهم، والعباءة  
الذي كانوا يؤمن المعتمد من أجل نواله، فنجده يشعر بحالهم  
ويتألم من ألمهم الذي كان قد خبره بنفسه، فيقول: (56)

كم من دراري سعد قد هوت وهنت  
هناك من دزر للمجد أفراد  
نور ونور فهذا بعد نعمته  
ذوى وذاك خبا من بعد إيقاد  
يا ضيف أفر بيت المكرمات فخذ  
في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد  
ويا مؤمل واديهم ليسكنه  
ضلت سبيل الندى بابل السبيل فسر  
لغير قصد فما يهديك من هادي  
ويعبّر عن المعنى ذاته في قصيدة أخرى، حيث يقول: (57)

طوقت من نائبات الدهر مخنقة  
ضاقت عليك وكم طوقتنا نعمنا  
وعاد كونك في دكان قارة  
من بعد ما كنت في قصر حكي إرما  
صرقت في آله الصواغ أنملة  
لم تدر إلا الندى والسيف والقلم  
يد عهدتك للتقبيل تبسطها  
فتستقل الثريا أن تكون فما  
يا صائغا كانت العليا تُصاغ له  
حليا وكان عليه الحلي منتظما  
ولصعوبة ذلك المنظر الذي شاهد ابن اللبانة حفيد المعتمد  
عليه، تمتى العمى على رؤيته له وهو على تلك الحال، فقال:

للنفخ في الصور هو ما حكاه سوى  
هول رأيناك فيه تنفخ الفحما  
وددت إذ نظرت عيني إليك به

لو أن عيني تشكو قبل ذاك عمى  
كانت فكرة تبدل حال المعتمد وكل من كان يحيط به من  
بعد زوال ملكه إضافة إلى تبدل حال ابن اللبانة من أكثر ما  
آلم ابن اللبانة وهيج الحزن والأسى بداخله، فذكرها وعبر عنها  
في أشعاره التي نظمها في المعتمد بعد محنته، حتى بدت  
ملحما واضحا في تلك الأشعار، ولقد تبيّن ما يتصل منها بابن  
اللبانة فيما سبق، وأما تبدل حال المعتمد فقد وقف عليه ابن  
اللبانة وصوره بألم واضح في غير موضع من شعره، حتى غدا  
وكأته مصيبة دعت الدنيا بأسرها وغيرتها؛ لما جرته على  
المعتمد بن عباد وآله من ذل وهوان، الأمر الذي جعل ابن  
اللبانة يزهد بعد بني عباد في كل شيء، ويرى أنه لم يعد  
لشيء بعدهم بهجة وبهاء، فالأرض بعدهم قد أقفرت، ومات  
ساكنوها، وتبدل كل شيء ولم يعد كما كان أيامهم، ويتجلى هذا  
المعنى في قوله: (53)

انفض يديك من الدنيا وساكنها  
فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا  
وقل لعالمها السقلي قد كتمت  
سريرة العالم العلوي أغمات  
طوت مظللتها لا بل مذللتها  
من لم تزل فوقه للعز رايات  
من كان بين الندى والبأس أنصله  
هندية، وعطاياه هنديات  
رماه من حيث لم تستره سابعة  
دهر مصيباته نبل مصيبات  
ويعتصر الألم قلب ابن اللبانة للحال التي أضحي المعتمد



وسلبت منه كل مقومات الحياة الكريمة، الأمر الذي جعله يشتكى من ذلك شكوى مريرة<sup>(59)</sup>، تمنى خلالها لو أنه مات دون أن يعاني ما عاناه بعد الأسر، ولقد كان ابن اللبانة مشاركاً له مشاعره تلك، فعظمت شكواه هو الآخر وعبر عنها، فاشتكى - كما تبيّن سابقاً - من تبدل الحال على المعتمد بعد زوال ملكه، ولكنّه مع كل الأمل الذي بدا واضحاً في تلك الشكوى حاول أن يهون على المعتمد مصابه الجلل ويخفف عنه ذلك، فذكره بأن بني العباس من قبله قد زال ملكهم، وخلت منهم ديارهم، فخاطبه قائلاً:<sup>(60)</sup>

هي المقادير لا تبقى على أحد  
وكل ذي نفس فيها لآمادٍ  
وأسوة لهم في غيرهم حسنت  
فما شماتة أعداءٍ وحسادٍ

إن يُخلعوا فبنوا العباس قد خلعوا  
وقد خلّت قبل حمص أرض بغداد  
وحاول أن يخفف عنه فأكد له بأن ما حلّ به من تبدل الحال كان نتيجة حتمية ملازمة لكل قويّ متميز أدى دوره على أكمل وجه، فصوره بالسيف الذي قلّ من شدة مضائه وفتكه، ويعود به إلى أيامه الجميلة التي مضت، فخاطبه مضمناً هذه المعاني، بقوله:<sup>(61)</sup>

سقى الله عهداً كنت صيبَ عهده  
بمثل الذي قد كنت تسقي وتشرب  
زمان بماء المكرمات مفضّض  
لديك ومن نارِ الكؤوس مُذهب  
لئن قلت الأيام منك قائماً

يُفّل من الأسياف ما كان يضرب  
ويحاول أن يساعده على تقبل واقعه الصعب وهو في الأسر لينتكيّف مع مرارته، فنجده يبيّن الأمل فيه ويؤمله بانفراج أزمته، محاولاً أن يجمل له الواقع وصعوبته من خلال الصور التي رسمها له وهو حبيس أسره، مقيد بالنقاف، فصوره والقيد محيط به كأنه قلب يحيط به شغافه، وكأنه زهر يغطيه الكمام حتى ينضج، وكأنه في صورة أخرى هلال أخفته الغيوم، وكأنه في أخرى سلاف حجبتها الدنان، وهذه كلها صور تتل على مكانته الكبيرة وعلو شأنه حتى وهو أسير، وتحمل في مضامينها أن أسره عارض مآله إلى زوال، ولقد ضمّن ابن اللبانة هذه الصور وما أوحى إليه من معانٍ مقطوعات عدّة قالها في المعتمد لما زاره في المنفى، ومن ذلك قوله وقد رآه في القيد:<sup>(62)</sup>

لم أقل في النقاف كان نقافاً  
كنت قلباً له وكان شغافاً

نبيكه من جبلٍ هُدّت قواعده  
فكل من كان في بطائحه هلكا  
ما سدّ موضعه الرزقُ سدّ به  
طوبى لمن كان يدري أية سلكا  
ويتحسّر ابن اللبانة على الحال التي آلت إليها قصور بني عبّاد من بعد المعتمد، وكيف صارت خالية من ساكنيها، وأصبحت موحشة كأنها لم تكن عامرة من قبل آنسة بالحياة ومعالم السيادة بادية عليها، فيصور حالها كيف أضحت من بعد سيدها متفجّعا على ما حلّ بها قائلاً:<sup>(58)</sup>

قصورٌ خلّت من ساكنيها فما بها  
سوى الأدم تمشي حول واقفة الدمي  
يُجيبُ بها الهام الصدى ولطالما  
أجاب القيان الطائر المترتما

ويأخذ بتذكّر حال تلك القصور أيام ملك المعتمد ملمحاً - ضمناً - إلى تبدل حالها إلى النقيض بعد زوال ملك بني عبّاد:

كأن لم يكن فيها أنيس ولا التقى  
بها الوفدُ جمعاً والخميسُ عرماً  
ولا حلت الآمالُ فيك ثباً ثباً  
فقامت إليها المكرماتُ لما  
ولا اخضرّ روضٌ في رباها فخلّته  
توشح منهم لا من الثور أنعماً  
ولا انعطفت فيه الغصون فعانقت  
وشيجا بأيدي الدارين مقوماً  
ولا حبست بيض الطّبي من فرندها

سوالف بات الدّر فيها منظماً  
وبيكي المعتمد في هذه الأبيات فارساً فذاً خلّت منه القصور، وتبدلت حالها من بعده، فيقول:

ولم تخفق الزاياتُ فيها فأشبهت  
قوادم طيرٍ في دُرّ الجوّ حوماً  
ولا جرّ فيها صعدة الرّمح خلفه  
فتاها فقلت: الصلّ أتبع ضيغما  
ولم يصدع النّقع المثار سنانه  
كما صدّع الظّلماء برق تضرماً  
ولا صوّرت في جسمه الدّرع شكلها  
فأشبه مما صوّرت فيه أرقما  
جرى القدرُ الجاري إلى نقض أمره

فعاد سحياً منه ما مبرما  
لقد كانت المحنة التي ألمت بالمعتمد بن عبّاد كبيرة، قلبت حياته وحياة من حوله من المقربين رأساً على عقب، أدلّته

بلاطهم بعد نكبة المعتمد، حيث كان قد قصد بلاط ناصر الدولة أمير ميورقة، ولكنه حورب في بلاطه، إذ "سُعي به إلى ناصر الدولة وتبذ حق نباهته وألعي، فلم يُرع انقطاعه، ولا جوزي إحسانه وإبداعه، وهجر هجر الجرب، وأقام مقام الحائر المضطرب"<sup>(65)</sup>، الأمر الذي جعل حياته عندهم "حياة ضيقة ومحنة"<sup>(66)</sup>. ومن هنا فإن من واجب ابن اللبانة تجاه المعتمد بن عبّاد وآله أن يظلّ وفيّاً لهم، باقياً على ما كان عليه معهم أيام ملكهم من مدح، وثناء، وعرفان بالجميل، إذ لم يقدّم له غيرهم ما قدّموه له، فلم تعلق على مكارمهم مكارم، ولم يزد أحد على عطائهم له، الأمر الذي جعله أدرى الناس بفضلهم عليه، فصوره وتغنّى به، ولما زال ملكهم افتقده وحن إليه فبكاها بكاءً مريراً.

### الخاتمة

هدف هذا البحث إلى دراسة الأشعار التي نظمها ابن اللبانة الداني في الوفاء للمعتمد بن عبّاد بعد زوال ملكه، فتبين أنها أسهمت إلى حدّ كبير في التأثير في شاعرية ابن اللبانة، وشكّلت رافداً من روافد خطابه الشعري، وعنصراً أساسياً من عناصر الإبداع الفني فيه، ووسيلة من وسائل التعبير عن المعاني التي ظهرت جليّة في ثنايا هذه الدراسة، ولعلّ هذا يعود إلى تلك العلاقة الوثيقة التي جمعت بين ابن اللبانة الداني والمعتمد بن عبّاد الذي عُرف بعنايته الفائقة بالأدب والأدباء، وليس أدل على ذلك من تلك المكانة المرموقة التي حظي بها الشعراء في عصره على المستويين: الأدبي والسياسي، وقد كان ابن اللبانة واحداً من بين هؤلاء الشعراء الذين نالوا جانباً كبيراً من العناية والتقدير من قبل المعتمد بن عبّاد، ولكن سرعان ما تغيّرت حاله من بعدهم، وافتقد تلك المكانة الرفيعة والاهتمام المادي والمعنوي الذي حازه أيام المعتمد، وقد انعكس هذا كلّ على أشعاره التي تتبعتها الباحثة وتناولها بالشرح والتحقيق ثلاثاً محاور رئيسة هي: مكانة ابن اللبانة عند المعتمد بن عبّاد أيام ملكه، والتّحسر على حاله بعد زوال ملك بني عبّاد، والوفاء للمعتمد بن عبّاد والتّحسر على ما حلّ به بعد زوال ملكه.

الباح، الفريد الانطباع، الذي ملك للمحاسن مقاداً، وغدا له البديع منقاداً، أي مقال ينبئ عن معناه وفضله؟. وعن شعره قال ابن بسام الشنتريني: كان أبو بكر شاعراً يتصرّف، وقادراً لا يتكفّر مرصوص المباني، ممتزج الألفاظ والمعاني. كانت وفاته في ميورقة عام 507. يُنظر في قلائد العفيان، ص 776، والدّخيرة في محاسن أهل الجزيرة ج 3، ص 500،

يمكثُ الزّهر في الكمام ولكن  
بعد مكثِ الكمام يدنو قطافا  
وإذا ما الهلالُ غاب بغيغ  
لم يكن ذلك المغيب انكسافا  
إنما أنت درّةٌ للمعالى  
ركب الدهر فوقها أصدافا  
حجب البيت منك شخصاً كريماً  
مثلما تحجبُ الدنانُ السّلافا  
أنت للفضل كعبة ولو أنى  
كنتُ أسطيع لالتزمتُ الطّوافا  
ومع أنّ حكم بني عبّاد زال بلا رجعة وتبدّلت الحال عليهم، وصار من العسير رجوعها إلى ما كانت عليه أيام سعودهم، نلاحظ ابن اللبانة - بدافع من حبه الكبير للمعتمد - كان يأمل ويتمنى لو أن أيامه تعود وترجع كما كانت قبل أسره، فيقول: (63)

ثرى ثرى بعد أن قامت قيامتهم  
من يوم بعث لهم فينا وميلا  
وهل يكون لهم زند يرى فيرى  
لنارهم هبة من بعد إخماد  
ولما كان عزّ ابن اللبانة وسعادته من عزّ المعتمد واستقرار ملكه، كان أمل ابن اللبانة برجوع الملك المعتمد أملاً برجوع مكانته هو الآخر، فكان يتمنى أن يتبدّل حاله برجوع الملك للمعتمد وزوال الأسر عنه، فيقول: (64)

رويدك سوف توسعني سرورا  
إذا عاد ارتقاؤك للسرير  
وسوف تُحلّني رُتب المعالي  
غداة تحلّ في تلك القصور  
تزيدُ على ابن مروان عطاءً

بها وأزيدُ تمّ على جرير  
وليس غريباً أن يتمنى ابن اللبانة عودة الملك لبني عبّاد، وأن تكون هذه من أكبر أمنياته وأحبّها إلى نفسه، وذلك للفرق الكبير بين حاله في بلاطهم، وحاله عند غيرهم من الحكّام الذين قصد

### الهوامش

- (1) هو أبو بكر محمد بن عيسى محمّد اللخمي الداني المعروف بابن اللبانة، لم تذكر المصادر التي ترجمت له شيئاً عن ولادته ونشأته، تردّد على ملوك الطوائف بجزيرة الأندلس وحظي بمكانة كبيرة عندهم. قال عنه الفتح بن خاقان: المديد

- (30) المصدر نفسه، ص 64/63.
- (31) ديوان ابن اللبانة، ص 26/25.
- (32) ديوان ابن اللبانة، ص 59.
- (33) المصدر نفسه، ص 61.
- (34) ينظر في تفصيل الحديث عن جوانب ثقافته في: ابن الأبار، الحلة السرياء، ج2، ص 68.
- (35) ديوان ابن اللبانة، ص 62.
- (36) المصدر نفسه، ص 124.
- (37) المصدر نفسه، ص 40.
- (38) المصدر نفسه، ص 62.
- (39) ينظر في: المعجب، ص 219، الذخيرة، ج2، ص 51، قلاند العقيان، ص 777.
- (40) الدقائق، ملامح الشعر الأندلسي، ص 280.
- (41) الذخيرة، ج2، ص 54، 55.
- (42) ينظر تفصيل خبر زيارته له والأشعار التي تبادلها في: ابن حمديس، الديوان، ص 270.
- (43) المراكشي، المعجب، ص 219.
- (44) الشنتريني، الذخيرة، ج2، ص 51.
- (45) ديوان المعتمد، ص 174.
- (46) ديوان ابن اللبانة، ص 72.
- (47) المصدر نفسه، ص 73.
- (48) الشنتريني، الذخيرة، ج2، ص 53.
- (49) ديوان ابن اللبانة، ص 130.
- (50) ديوان المعتمد بن عباد، ص 177.
- (51) الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج2، ص 64.
- (52) ديوان ابن اللبانة، ص 120.
- (53) المصدر نفسه، ص 37/36.
- (54) ديوان ابن اللبانة، ص 56.
- (55) المصدر نفسه، ص 126.
- (56) المصدر نفسه، ص 57.
- (57) المصدر نفسه، ص 108.
- (58) ديوان ابن اللبانة، ص 124.
- (59) الزيون، شعر الملوك والأمراء في الأندلس، ص 123-132.
- (60) ديوان ابن اللبانة، ص 59/58.
- (61) ديوان ابن اللبانة، ص 26.
- (62) المصدر نفسه، ص 94.
- (63) ديوان ابن اللبانة، ص 60.
- (64) المصدر نفسه، ص 73.
- (65) ابن خاقان، قلاند العقيان، ص 783.
- (66) يكن، المعتمد بن عباد وشعره، ص 64.
- شعر ابن اللبانة الداني دراسة وصفية، عواطف محمد صالح، رسالة ماجستير، جامعة ام القرى، 18-33.
- \* البارض أول ما يظهر من نبت الأرض وخصّ بعضهم به الجعدة، والنزعة، والبهمة، والهلي، والقبأة، ونبات الأرض، وقيل هو أول ما يُعرف من النبات، ينظر لسان العرب لابن منظور مادة برض.
- (2) المقرئ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج3، ص 190.
- (3) عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ط1، ص 61.
- (4) المرجع نفسه، ص 65.
- (5) جبور، الشعراء الملوك، ط1، ص 271.
- (6) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 162.
- (7) المصدر نفسه، ص 158.
- (8) ابن الأبار، الحلة السرياء، ط2، ج2، ص 55.
- (9) المقرئ، نفع الطيب، ج4، ص 372.
- (10) بلنثيا، أنخل جنثالت: تاريخ الفكر الأندلسي، مكتبة الثقافة الدينية، ص 114.
- (11) المراكشي، المعجب، ينظر تفصيل ذلك من 158-211.
- ابن سعيد المغربي، المغرب، ج1، ص 264.
- (12) المقرئ، نفع الطيب، ج4، ص 242/241.
- (13) المصدر نفسه، ج4، ص 255.
- (14) المصدر نفسه، ج4، ص 255.
- (15) ابن الأبار، الحلة، ج2، ص 67.
- (16) الشنتريني، الذخيرة، ج2، ص 55.
- (17) ديوان المعتمد، ص 154.
- (18) السعيد، الشعر في ظلّ بني عباد، ط1، ص 182.
- (19) يكن، المعتمد بن عباد وشعره عصره، ص 63.
- (20) المقرئ، نفع الطيب، ج4، ص 222.
- (21) الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج3، ص 500.
- (22) ابن خاقان، الفتح، قلاند العقيان، ط1، ص 777.
- (23) المقرئ، نفع الطيب، ج3، ص 199. والأبيات وردت في ديوان ابن اللبانة ص 138.
- (24) في الديوان حيهم بدلا من أرضهم.
- (25) ديوان ابن اللبانة، جمع وتحقيق: محمد مجيد السعيد، ط2، ص 89.
- (26) ينظر تفصيل هذا الخبر في الذخيرة، ج2، ص 52/51.
- (27) ديوان ابن اللبانة، ص 73.
- (28) الشنتريني، الذخيرة، ج2، ص 53.
- (29) ديوان ابن اللبانة، ص 130.
- \* المصدر نفسه، ص 39.

## المصادر والمراجع

ابن عبّاد، المعتمد، الديوان، جمع وتحقيق: رضا الحبيب السّويسي، 1975م، الدّار التّونسيّة للنّشر.  
عباس، إحسان، 2001م، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطّوائف والمرابطين)، دار الشّروق، ط1.  
ابن اللبانة، محمّد بن عيسى اللّخمي، ديوان ابن اللبانة مجموع شعره، جمع وتحقيق محمّد مجيد السّعيد، 2008م، دار الرّاية، الأردن، ط2.  
المراكشي، عبد الواحد بن علي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمّد سعيد العربيان، 1963م، القاهرة.  
المقري، أحمد بن المقري التلمساني، نفع الطيب من غصن الأندلس الرّطيب، تحقيق: إحسان عباس، 1997م، دار صادر.  
المغربي، ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، طبعة ثانية منقّحة.  
ابن منظور، جمال الدّين بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1994م.  
يكن، محمّد زهدي، 1975م، المعتمد بن عبّاد وشعره عصره، دار يكن للنّشر، بيروت.

ابن الأبار، محمد بن عبد الله، الحلة السّيراء، ط2، تحقيق حسين مؤنس، 1985م، دار المعارف، القاهرة.  
بلنثيا، أنخل جنثالث، تاريخ الفكر الأندلسي، مكتبة الثقافة الدّينيّة، نقله عن الإسبانيّة حسين مؤنس، 2006م.  
جبور، جبرائيل، الشّعراء الملوك، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1981م.  
ابن حمديس، عبد الجبّار، الديوان، تحقيق إحسان عبّاس، 1960م، دار صادر، بيروت.  
ابن خاقان، الفتح، فلاند العقيان، تحقيق حسين خريوش، 2010م، عالم الكتب الحديث، ط1.  
الزّيون، رغدة، 2010م، شعر الملوك والأمراء في الأندلس، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنيّة.  
السّعيد، محمّد مجيد، الشعر في ظلّ بني عبّاد، مطبعة النّعمان، النّجف الأشرف، ط1، 1972م.  
الشّنتريني، ابن بسام، النّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عبّاس، 2000م، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت.

## Poetry of Ibn Al-Labbanah to Al-Muutamed Ibn Abbad

Ragda Al-Zboon\*

## ABSTRACT

This paper aims at investigating the poetry composed by Ibn Al-Labbanah Ad-Dani in Al-Muutamed Ibn Abbad, who is considered one of the most famous kings in the Andalusian era, after his ordeal and incidence in captivity. The paper is an attempt to explore the motives of Ibn Al-Labbanah's great loyalty to Ibn Abbad. In addition, it reveals the themes of the poetry composed in this regard, which discuss three aspects. The first aspect is the prestigious position of Ibn Al-Labbanah in Ibn Abbad's life. Secondly, feeling sorrow at the change of his status and prestige after the demise of the kingdom of Bani Abbad. Finally keeping faith with Al-Muutamed Ben Abbad and feeling sorrow to him and to things happened to him after the demise of his kingdom and being in captivity. The research concludes to demonstrate the privacy of poetry of Ibn-Al-Labbanah's that reveals the relationship which connected him with Ibn Abbad. It also reflected this close relationship clearly in his poems and clarified his loyalty and sincerity.

**Keywords:** Ibn Al-Labbanah, Al-Muutamed Ibn Abbad.

\* Language Center, The World Islamic Sciences and Education University, Jordan. Received on 15/1/2014 and Accepted for Publication on 1/4/2014.